منهجية الباحث في النصرانيات في الإفادة من مكتبة مقارنة الأديان

الأستاذ محمد بودبان
جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية -قسنطينة

يكتسي البحث في مقارنة الأديان أهمّيةً بالغةً، وفي نفس الوقت صعوبةً، أكسبته إيَّاها خطورة الموضوع وحساسيّاته من جهة؛ وكذلك صعوبة تحديد المنهج -أو المناهج- من جهة أخرى.

فأمّا من حيث الموضوع (وهو الدّين): فلكون الإنسان لا يخلو من اعتقاد (والاعتقادُ أن لا دينَ هو في حدِّ ذاته اعتقادٌ)، ونُظُمُ الاجتماع لا يستغني هيكلُها عن المظاهر الدّينيّة والاعتقادية؛ بل لا نبالغ إن قلنا: إنّ الدّين ظاهرةٌ مركزيّة في الاجتماع. وعلى ذلك فإنّ نقدَ دينٍ ما، لا يخلو من الخلفية الاعتقادية للنّاقد — سواءٌ أكان موافقاً أم مخالفاً- والتّعامل عادةً، وعمومًا فيما بين أهل الأديان هو التّصادم والصِّراع، والافتراءُ -أحياناً-، واعتبار الحقِّ المطلق ما عليه هو ومن معه.

وأمّا من حيثُ المناهج: فيجد الباحث في مقارنة الأديان نفسَه تائهاً بين شتّى المناهج المستخدمة في سائر العلوم وبين قناعاته واعتقاداته من جهةٍ؛ وبين إسقاط تلك المناهج على دراساته الدّينية المقارنة من جهةٍ أخرى.

وإذا تجاوزنا هذا المدخل؛ فيمكننا القول بأنّه تعترض الباحث في مقارنة الأديان عمومًا مشكلةٌ أخرى -وجُذُورها فيما سبق ذكرُهُ- وهي تكوين مكتبته التي ستحدِّدُ

له التّعامل مع الموضوعات من حيث العلمية والمنهجية؛ بل وما قبل المنهج[1] باصــطلاح الشيخ محمود شاكر رحمه الله تعالى.

وحينما نقول: "مكتبة مقارنة الأديان" فإنّنا لا نقصد بها في المقام الأوّل الوجـــود المادِّي المتبادِر إلى الذّهن؛ بل نقصد به —وقبل كلّ شيءٍ— وجودَ هيكلِها في الــذِّهن، وإدراكَ أنواعِ مكوِّناتِها، وفائِدةَ كلِّ نوعٍ.

ولكنّنا في هذه المقالة سنقتصر في البيان على مكتبة المشتغل في حقل النّــصرانيات، وإن كان الباحثُ لا يُعَدُّ شيئاً إن لم يكن ملمًّا بالمكتبة العامّة لمقارنة الأديان ككــلٍّ، فنقول:

أوّلا: مكوِّناتُ مكتبة مقارِن الأديان في حقول النّصرانيَّات:

إنَّ مكوِّنات هذه المكتبة تتوافق مع غرض الباحث في حقل دراسته هذا؛ وإذا علمنا أنَّ هذا الحقلَ المعرفي يكمن بصورة عامّة في مجالين هما: النّصرانية كــدينٍ؛ والتنــصير

---

1) ماقبل المنهج مسألة شغلت حياة الشيخ محمود محمد شاكر ولا يُغفل في شيءٍ من كتبه ذكرها أو الإشارةَ إليها ويقصد بها: «الأساس الذي لا يقوم المنهج إلاّ عليه ... [و] ينقسم إلى شطرين: شطرٍ في تناول المادّة وشطرٍ في معالجة التَّطبيق. فشطر المادَّة يتطلّب قبل كلّ شيءٍ جمعَها من مظانّها على وجهِ الاستيعاب المتيَسِّر ثمّ تصنيف هذه الجموع ثمّ تمحيص مفرداته تمحيصاً دقيقاً. وذلك بتحليل أجزائها بدقّة متناهية وبمهارةٍ وحِذقٍ حتّى يتيسَّر للدّارس أن يرى ما هو زيفٌ جليًّا واضحا وما هو صحيحٌ مستبينًا ظاهراً بلا غفلة وبلا هوى ولا تسرّع.

أمّا شطر التَّطبيق فيقتضي إعادة تركيب المادّة بعد نفي زيفها وتمحيص جيِّدها باستيعاب أيضاً لكلِّ احتمالٍ للخطأ أو الهوى أو التّسرّع. ثمّ على الدّارس أن يتحرّى لكلِّ حقيقةٍ من الحقائق موضعًا هو حقُّ موضعها»؛: محمود شاكر: قضيّة الشعر الجاهلي في كتاب ابن سلاّم (دط) مطبعة المدني: القاهرة– مصر؛ دار المدني: جدّة– المملكة العربية السّعودية (دت) ص 8.

كدعوةٍ إلى هذا الدِّين، فيمكننا إذن وفق نظرتنا الدعوية الإسلامية أن نحـــدِّدَ غـــرض الباحث في أمرين:

أ- محاورة النّصارى وبيان الحقّ لهم، ودعوتهم إليه، على ضوء الدِّراســة العلميَّــة الواعية لدينهم، ودينه.

ب- إكساب المسلمين مناعةً ضِدَّ الأفكار التي تتهدَّدُ وجودهم من جهة التَّنصير.

وعلى هذا الأساس يمكننا البحث في مكوّنات تلك المكتبة؛ والتي نُرَى مكوِّناتها على نوعين: أساسيَّة، ثمَّ ثانوية؛ أو إن شئتَ قلت: مباشرة وغير مباشرة.

1/ المكوّنات الأساسيّة:

نقول أساسيّة، لأنّ مجهود الباحث سينصبُّ طوال حياته البحثِيَّة على الغوص فيها من جهةٍ؛ ومن جهةٍ أخرى فإنّها تُعدُّ المورد الأساس للمفردات البحثيَّة؛ ويمكن أن نَعُدَّ فيها:

أ/ مصادر الأديان:

إذ لا يمكن الانطلاق من أفرُعِ الشيء بل من أصوله؛ وأَولى الأصول بالعناية هي الكتابات المقدَّسة —سواءٌ كان تأسيس الدِّين بناءً عليها أو جاءت كتبريرٍ لمعتقدات دينيةٍ موجودةٍ قبل النُّصوص— وفي حالنا هذه تكون المصادر التي ينبغي العناية بها:

- القرآن الكريم، والسنَّة النبوية؛ والمرويَّاتُ في الجانب الإسلامي.
- الكتاب المقدَّس بقسميه في الجانب المسيحي.

وههنا ينبغي التّنبيه على خطوات منهجية في التّعامل مع هذه المــصادر نُوجزُهـــا كالآتي:

- إدمان القراءة للنُّصوص: لأنَّ إبطالَ شيءٍ أو إثباتَه يتوقّف على استحضار النَّص بدقائقه اللّفظية والأسلوبيّة، لأجلِ مقارنته بنصوصٍ أخرى، هي الأخرى مستحضرةٌ حال الدراسة.

- الوقوف على صحّة النَّص بما يتناسب مع حاله: فبالنِّسبة للسنّة مثلاً —وبعد الاطّلاع عليها في مظانِّها- ينبغي أن تُكتَسب القدرةُ على التّمييز بين صحيحها وسقيمها بموازين المسلمين، تمهيداً للدّخول في الحوار مع الآخر؛ وبالنِّسبة للكتاب المقدَّس: ينبغي مثلاً معرفة الأسفار القانونيّة من الأبوكريفا، وما يعدُّ قانونياً عند[1] طائفة دون أخرى، وما هي الفقراتُ التي تحوم حولها الشُّكوك عند علماء النّصارى —وبحسب الطّوائف- وما لا يوجد مثلاً في أقدم النُّسخ؛ كأن يعلم المرء مثلاً أنَّ إنجيل مرقس ينتهي في الإصحاح السادس عشر عند الفقرة الثامنة منه؛ يقول وليم باركلي: «أمّا[2] عدد: "9- 20" فلم نجده في المخطوطات القديمة الموثوق بها. ويلوح أنَّ أحدهم قد

---

1) يُطلق البروتستانت اللفظة "منحولة" على أسفار العهد القديم التي تسمّيها الكنيسة الكاثوليكية: "القانونية الثانية/ Deutérocononiques" أي: يهوديت وطوبيا والمكّابيون الأوّل والثّاني والحكمة ويشوع بن سيراخ وباروخ ومقاطع من أستير ودانيال أضافتها التّرجمة السّبعينيّة إلى الأصل العبري. أمّا الأسفار التي تُسمِّيها الكنيسة الكاثوليكيّة "منحولة": فإن كانت من العهد القديم يسمِّيها البروتستانت **Pseudépigraphe** أي الأسفار المنسوبة خطأً؛ وإن كانت من العهد الجديد يسمّونها **Antilégomene** أي الأسفار المناقضة لأسفار العهد الجديد. أمّا الكنائس الأورثوذكسية الخلقيدونية وغير الخلقيدونية فإنّها لم تحدِّد بعدُ رأيها في هذه الأسفار .انظر: المطران كيرلس سليم بسترس الأب حنّا الفاخوري الأب جوزيف العبسي البولسي: الفكر المسيحي عند آباء الكنيسة؛ منشورات المكتبة البولسية بيروت – لبنان ط1 2001م. هامش ص 36.

2) وليم باركلي: تفسير العهد الجديد المجلد الأوّل: تفسير متى ومرقس ت فايز فارس وفهيم عزيز (ط1) دار الثقافة: القاهرة– مصر 1993م. ص 662.

لخّص عمل الكنيسة وحياتّها، ووضع هذا الملخّص ليكون بديلاً عن تلك النهاية المبتورة؛ وكاتبها كان يعلم أنّ للكنيسة عملاً مهمّاً يجب أن تقوم به.

ومن هذا الكلام ينطلق الباحث في التّحليل والمناقشة؛ فكلام "باركلي" جميلٌ، غيرَ أنّه يُعكّر صفوه، أنّ الذي أضاف الاثنتي عشرة فقرة، قد أضاف أخباراً[1] لا شروحاً دينيّة عن وظيفة الكنيسة؛ بل إنّ تلك الأخبار تتعلّق بقيامة المسيح عليه السّلام ومن رآه وما فعل بعد ذلك، وكيف أمر بالكرازة بالإنجيل للخليقة كلّها...إلخ

- القيام بتجميع النُّصوص بمختلف نسخها: فمثلاً فيما يخصُّ القرآن الكريم الذي ليس له إلاّ نسخةٌ واحدةٌ؛ إلاّ أنّه من الاستعداد العلمي الذي ينبغي للباحث ههنا، أن تكون له القدرة على تجميع القراءات (ولا نعني أن يصير من القُرّاء بها) والتي قُرئ بها القرآن الكريم تواتراً، وآحاداً، بل وشذوذاً كذلك. وبالنّسبة للأحاديث: أن تصير له قدرةٌ على إدراك الألفاظ المختلفة التي يرد بها الحديثُ الواحد. وبالنّسبة للكتاب

1) تمعَّن فيها: «وبعدما قام باكراً في أوّل الأسبوع ظهر أوّلاً لمريمَ المجدليّة التي كان قد أخرج منها سبعة شياطينَ. فذهبت هذه وأخبرت الذين كانوا معه -وهم ينوحون ويبكون- فلمّا سمع أولئك أنّه حيٌّ وقد نظرته لم يُصدّقوا. وبعد ذلك ظهر بهيئة أخرى لاثنين منهم وهما يمشيان منطلقين إلى البرّيّة. وذهب هذان وأخبرا الباقين فلم يُصدّقوا ولا هذين. أخيراً ظهر للأحد عشر وهم متّكئون ووبّخ عدم إيمانهم وقساوةَ قلوبهم لأنّهم لم يُصدّقوا الذين نظروه قد قام. وقال لهم: «اذهبوا إلى العالم أجمع واكرزوا بالإنجيل للخليقة كلّها. من آمن واعتمد خَلَص؛ ومن لم يُؤمن يُدن. وهذه الآياتُ تتبع المؤمنين: يُخرجون الشّياطين باسمي ويتكلّمون ألسنة جديد. يحملون حيّات وإن شربوا شيئاً مُميتاً لا يضرّهم ويضعون أيديهم على المرضى فيبرون». ثم إنّ الرّبَّ بعدما كلّمهم ارتفع إلى السماء وجلس عن يمين الرّب. وأمّا هم فخرجوا وكرزوا في كلِّ مكان. والرّبُّ يعمل معهم ويُثبّتُ الكلام بالآيات التّابعة. آمين». مرقس 16: 9-20.

المقدّس: أن يجمع منه نسخه المختلفة، بحسب سنوات الطَّبع، وأماكنها، ومترجميها، واختلاف أرقام الطبعات[1]، وتنوُّع ألسنتها[2].

– تصنيف النُّصوص: والقدرةُ عليه هي قدرةٌ على الحوارِ؛ ويكون هذا التَّصنيف بحسب أغراض الباحثِ ومتطلّبات البحثِ، كأن يكون موضوع البحث عن عدم فهم الحواريِّين مثلاً لكلام المسيح عليه السّلام، فيصنّف في هذه الخانة مثلاً النُّصوصَ التّالية: يوحنا 2: 18-22؛ يوحنا 4: 31-34؛ مرقس 9: 30-32؛ يوحنا 13: 6-7؛ يوحنا

---

1) تتبُّع أرقام الطبعات المختلفة يقف الباحث على مختلف التطوّرات المتعلقة بالكتاب المقدَّس من حيث نشره والتّعليقات عليه والتي عادةً – أو لنقل: في بعض الأحيان– تستجيب للنُّقود الموجَّهة للكتاب من قبل المسلمين بخاصَّة وأحياناً لمراجعات على إثر دراسات تقوم بها الهيئات المسيحيّة المختلفة؛ فيمكنك مثلاً الوقوف على فصاحة الطبعة الأولى من الترجمة اليسوعية للكتاب المقدّس نسبياً [مطبعة المرسلين اليسوعيّين: بيروت 1897م] والتي جعلت القائمين عليها يقولون: « وقد مدح عبارة هذه التَّرجمة جماعةٌ من علماء المسلمين» ص 8. وبين الطّبعة الثالثة [دار المشرق: بيروت– لبنان 1994م] التي عادت إليها مسحات العُجمة؛ ولعلَّ قولاً نسوقه لهم في أوّل الطبعة قد يبيِّن شيئاً من السبب وهو قولهم: «قد لا تجد أيُّها القارئ في هذه التّرجمة الجديدة جميعَ الألفاظ والتّعابير والتّراكيب التي ألفتها أذناك وذاكرتك في التّرجمة القديمة؛ فقد بُدِّل بعضُها للمزيد من الدِّقّة والأمانة»؛ انظر ص 7 من تلك الطبعة.

2) فقد يُشكل المعنى على القارئ بلغة معيّنة فيجد في لسانٍ آخرَ ما يُزيل عنه عدم الفهم هذا من جهة؛ ومن جهةٍ أخرى فإنَّ الواقف على مختلف النُّسخ للكتاب المقدَّس من لغات شتّى يمكنه أن يتلمَّس وجود المتناقضات والوقوف عليها بعلميَّة؛ أو يمكن أن يكون ذلك سببًا في الانطلاق نحو الدّراسات الفيلولوجية الهادفة فحينما يُصادفني مثلاً في قاموس الكتاب المقدّس [تأليف نخبة من الأساتذة ذوي الاختصاص ومن اللاّهوتيِّين؛ هيئة التّحرير: بطرس عبد الملك جون ألكسندر طمسن إبراهيم مطر (ط13) دار مكتبة العائلة: القاهرة مصر مطبعة الحرّيّة: بيروت– لبنان 2000م ص 107] بيانُهم أنّه في العهد القديم باللّغة العبرية ثلاث مترادفات رئيسة لاسم الجلالة وهي: "إيلوهيم" و"يهوه" و"أدوناي" وأنَّ الاسم الأوّل مستعملٌ كثيرا في الإصحاح الأوّل من سفر التّكوين فإنّنا نجد في التّرجمات العربيّة والملك جيمس ومارتن لوثر عدم استعمال له؛ ومن هنا تنفتح آفاق البحث.

13: 21-29؛ متّى 17: 28؛ متّى 16: 5-؛12؛ مرقس 4: 39-41؛ مرقس 7: 14-18؛ مرقس 9: 9-10.

ب/ تفاسير مصادر الأديان:

وأهمّية هذا المُكوِّن تكمن في أنَّ تأويل النَّص الدِّيني وآلياته معقَّدةٌ بسبب ما يَحوطها عادةً من القداسة، وكذلك العناية التي تسمو على أيّة عناية بنصوصٍ أُخَرَ. ولا نقصد ههنا بالتَّفاسير المعنى الضيِّق، بل الواسعَ للكلمة، حيثُ إنَّ الكتب التي تؤصِّل للعقائد مباشرةً من النَّصِّ يمكن عدُّها من التّفاسير؛ وكتبُ الآباء الرّسوليِّين في الكنيسة يمكن كذلك عدُّها تفاسيرَ. وكذلك كتب السيرة النبويَّة في الجانب الإسلاميِّ.

والوقوف على التَّفسيرات والتَّعليقات على الكتاب المقدَّس يفتحُ آفاقاً ليس لها حدودٌ –سواء على مستوى الفهم، أو الرّدِّ– في الإلمام بجميع المعلومات التي تصوغ ثقافة الباحث في النَّصرانيّات؛ وإليك هذا المثال:

لو تتبّع باحثٌ تفسيرَ "وليم باركلي" لأسفار العهد الجديد؛ فإنّه بالإضافة للفوائد العلميّة المجرّدة التي يحصِّلها، فإنّه سيقف على أمورٍ تُفيده في تحقيق الهدفين الآنفي الذكر والذين يسعى إليهما. كقوله مثلاً لدى تعليقه على نصٍّ: مرقس[1] 3: 10- 12: «... وكانوا[2] ينادون يسوع باسم: «ابن الله». وهنا يجب أن نأخذ حذرنا في معالجة هذا اللقب؛ فلا نظنَّ أنّهم كانوا يقصدون معنًى لاهوتياً، أو فلسفياً كما نفهمه نحن في عصرنا الحديث، بل كانوا يقصدون به معنًى آخرَ أكثر بساطةً ممّا نعرف. فقديماً كان

---

1) وهو كالآتي: «لأنّه كان قد شفى كثيرين حتّى وقع عليه ليلمسه كلُّ من فيه داءٌ. والأرواح النجسة حينما نظرته خرّت له وصرخت قائلةً: «إنّك أنت ابنُ الله!». وأوصاهم كثيراً أن لا يُظهروهُ».

2) وليم باركلي: تفسير متى ومرقس، مرجع سابق، ص 508- 509.

ملوك مصر يُدعون: "أبناء رع"، ومن أيّام أغسطس قيصر كان القياصرة يعرفون بأبناء الآلهة. أمّا العهد القديم فقد أطلقه على أربع فئاتٍ من المخلوقات:

1/ أطلقه على الملائكة: ففي تكوين 16: 20 يرى بنوا الله – الملائكة– بنات النّاس أنّهن حسنوات. وفي 1يوحنا 1: 6 يظهر أبناء الله مجتمعين معاً أمام الله. فابن الله هو اللقب الطبيعي للملاك.

2/ وأطلقه على الأمّة الإسرائيلية قاطبةً فيقول: « من مصر دعوت ابني» (هوشع 11: 1) ثمّ يقول: «إسرائيل ابني البكر» (خروج 4: 22)

3/ وأطلقه أيضاً على الملك، ففي 2 صمويل 7: 14: يُعطي الله الوعد لداود أن نسله الملوكي يكون له ابناً، وهو يكون له أباً.

4/ وآخر الكلّ أُطلق في كتابات ما بين العهدين على الرجل الصالح، إذ يقول: «ستكون ابنا للعليِّ وسيحبّك أكثر من أمّك». (سيراخ 4: 10).

في كلّ هذه المواضع نجد أنّ ابن الله تطلق على الشخص القريب من الله الذي له صلةٌ خاصّةٌ به.

وقد نجد نفس هذا المفهوم في العهد الجديد؛ فتيموثاوس هو ابنٌ لبولس الرّسول، إذ هو أقرب إلى نفسه، ويفهم غرضه أكثر من أيِّ شخصٍ آخر: (1 تيموثاوس 1: 18،2. وفيليبي 2: 19- 22).

وكذلك مرقس دُعي ابناً لبطرس، لأنّه استطاع أن يعرف عقل بطرس، وتفكيره معرفةً عميقةً فتكونَ له صلةٌ عميقة به (1 بطرس 5: 13).

وهكذا يستخدم العهد الجديد هذا اللقب في بساطته، فأينما قابلنا هذا اللقب على صفحاته فلا نظنّ أنّ المقصود برهنة عقيدة التثليث مثلاً، بل لنفهمه على أنّه الطريقة التي حاول بها النّاس أن يعبّروا عن العلاقة الخاصّة بين يسوع والله. وبهذا المعنى كان

ينطق هؤلاء المرضى بأرواحٍ نجسة بهذا اللقب. فقد كانوا يعتقدون أنّ الشياطين التي تملكّتهم تخاف وترهب هذا الشخص الذي له هذه العلاقة الخاصّة بالله. انتهى كلام "باركلي".

ج/ كتب الفكر الدّينيّ:

ويُقصدُ بها الكتب التي تَبسط أحكام الدِّين، أو الاعتقاد، وفلسفتَه، وتُناقش محاوره، وتضع تقريراته في قوالبَ جذّابة لإقناع المخالف، وطُمأنينة الموافق؛ أو الكُتُبِ التي تُعنى بالظاهرة الدّينيّة عموماً؛ أو الرُّدود...إلخ. وقد تتقاطع هذه المجموعة من الكتب مع المجموعة السّابقة الذِّكر (أقصد تفاسير مصادر الدِّيانة) في بعض الكتب.

وكتب الفكر الدّيني تُسهِّل على الباحث ضبط المفاهيم ومناقشتها؛ كأن يبتغي ضبط مفاهيمه عن الهرطقة في المسيحية، فيذهب إلى كتاب مسيحيٍّ يتكلّم عنها؛ فيجد تعريفاً لها؛ كـ: «التّعريف[1] الكاثوليكي للهرطقة...: «رأيٌ دينيٌّ مُدانٌ كنسياً على أنّه مناقضٌ للإيمان الكاثوليكيّ». أو أيضاً: «خطأٌ إراديٌّ ومتشبّثٌ به، متعارضٌ مع مبدأ إيمانيٌّ موحى به، وتعلّمه الكنيسة بصفته هذه»». ثمّ يُتابع البحث عن أنواعها، وتواريخها، واختلاف المنطلقات في الوصم بها، وأثر الانقسام الكنسي في اضطراب المفاهيم فيها...إلخ.

1) ج. ويلتر: الهرطقة في المسيحية؛ ترجمة جمال سالم (دط) دار التنوير بيروت- لبنان 2007، ص 17

د/ كتب التَّواريخ، ودوائر المعارف العامّة والخاصّة:

أمّا التَّواريخ فلأنَّ الدِّيانات مرتبطةٌ بالزَّمن، سواءٌ باعتبار النَّشأة، أو باعتبار التَّطوِّر، أو باعتبار الاضمحلال، أو باعتبار امتزاج المعتقدات[1]. وعلى هذا لا يمكن إصدارُ حكمٍ البَتَّة على دينٍ، أو شيءٍ منه معَ الجهلِ بتاريخِه.

وإذا أخذنا العهد الجديد كمثالٍ؛ فإنّه لا يمكننا فهمه بمعزلٍ عن المعطيات التّاريخية المتعلّقة بزمان المسيح عليه السّلام، وبيئته على وجه الخصوص؛ يقول ميخائيل نُعيمة في كتابه القيِّم: "من وحي المسيح": «ليس قصدي[2] من هذا الفصل[3] كلّه إلاّ أن أبيِّن أنّ البيئةَ التي عاش فيها يسوع، كان لها أثرٌ بارزٌ في أقواله وأعماله. وهذه البيئةُ يفهمها الرّجل الشّرقيّ وقلّما يفهمها الرّجل الغربيُّ على حقيقتها. لذلك نرى أنّ معظم فنّاني الغرب الذين اهتمّوا بيسوع قد "غرّبوه" أي جعلوه غربيّاً على صورهم ومثالهم؛ وكذلك فعلوا بأمّه».

وأمَّا دوائر المعارف؛ فأهمّيّتُها تكمن في منهجيَّة تأليفها؛ فمن جهةٍ يجتمع في ذلك الجُهدِ النُّخبةُ من أهل الدِّراية والعلم بموضوعاتها؛ ومن جهةٍ أخرى نجدُ أنَّ أسلوبَ تأليفها يُراعى فيه مستوياتُ القارئين من جهة، ويراعى كذلك فيه نوعُ المعلومات،

1) يرى محمَّد أبو زهرة مثلاً أنَّ: « أنَّ العراق كان مُزدَحَم الآراء في المعتقدات من قديم؛ ذلك لأنّه كان يسكنه عدَّةُ طوائفَ من نِحلٍ مختلفة من قديم. والمذاهب التي نشأت يبدو فيها اختلاط العقائد المتضاربة؛ فالدّيصانية والمانوية ليست إلاّ مزجاً لثنوية المجوس بالمبادئ النّصرانية. وهكذا ترى كثيراً ممّا ظهر من النِّحل المختلفة فيه استنباطُ عقيدةٍ من مجموع عقيدتين أو عدّة عقائد»». محمد أبو زهرة: تاريخ الجدل؛ (دط). دار الفكر العربي (دت) (دب)، ص 116.

2) ميخائيل نعيمة: من وحي المسيح؛ (ط2) مؤسسة نوفل بيروت- لبنان 1987، ص 102.

3) يقصد بيئة يسوع.

وحجمُها، وترتيبها، وسَوْقُ أدلَّتها... إلخ من جهة ثانية. ويمكن القول من جهة ثالثة بأنَّها أداةٌ لمحوِ الأمِّيَّة العامَّة في حقلٍ ما.

فلو أخذنا كمثالٍ على كلامنا "قاموس[1] الكتاب المقدَّس" فإنّنا نجده مرتَّباً ترتيباً ألفبائياً؛ ثمَّ يمكنك اختيار لفظة معيَّنة، تُريد معلومات تكون أساساً في انطلاقك البحثيِّ بعد ذلك؛ ولتكن لفظة[2] "النَّبيِّ" مثالاً لنا، حيثُ تجد تعريفاً لغوياً للفظة النبيِّ، واستعمالاتها منذ العهد القديم، وختامًا برسل المسيحِ، مع بيانٍ للحوادث التّاريخيَّة اللّصيقة بظاهرة النُّبوَّة، ومعانيها الدّينيَّة، ووجود إطلاق لفظ النبيّة على نساء... إلخ. وأهمُّ ما يُقدِّمه القاموس هو استشهاده على كلِّ كلمةٍ -تقريباً- بمجموعةٍ من النُّصوصِ الكتابيَّة، حيثُ يذكرون نصّاً بلفظه عادةً، ويحيلون على الباقي بذكر الأسفار والإصحاحات وأرقام الفقرات.

هـ/ كتب المناهج والحِجاج:

وكتب المناهج والحِجاج هي الينابيع التي تُمدُّ مقارِن الأديان في النَّصرانيَّات وغيرها بالطرق والوسائل التي من دونها يكون عاجزاً عن الإفادة من كلِّ المكتبة بلا استثناء؛ وهي التي تطوي له المسافاتِ الطِّوال من الجهد؛ لأنّ العملَ على غير هدًى، نتيجتُهُ التِّيهُ والضياعُ في مجاهلَ لا يمكن الخروج منها.

وهذه الكتب تعلِّم الباحث، كيف يكوِّن ثقافته، ويبني شخصيته العلمية؛ وكيف يتعلّم ويُحسن في التعلّم، وكيف يفيد من الأدلّة والمعلومات، جمعاً وفهمًا واستنباطاً، وعرضاً وتقريراً وجدلاً.

---

1) تأليف نخبة من الأساتذة ذوي الاختصاص ومن اللاّهوتيِّين؛ هيئة التَّحرير: بطرس عبد الملك جون ألكسندر طمسن إبراهيم مطر (ط13) دار مكتبة العائلة: القاهرة مصر مطبعة الحرِّيَّة: بيروت- لبنان 2000م

2) قاموس الكتاب المقدَّس: مرجع سابق، ص 949.

و/ كتب اللُّغات:

ونقصد ههنا العمومَ والخُصوصَ؛ فأمّا العمومُ فتعلُّم اللغة -أيًا كانت- هو زيادةٌ في فهم الرُّموز اللُّغويّة، وفقه اللُّغة، وأساليب الفهمِ والإفهام، وأساليبِ الكلامِ والمتكلِّمين. وكلُّ هذه الأشياء الآنفةُ الذِّكرِ تصبُّ في اتِّجاه حسنِ التَّأويل للنّص الدِّينيِّ؛ وفي اتِّجاه حُسن الحوار، ومن ثَمَّة أن تكون دراسات الباحثِ المُلتزِم بها ذات أثمار يانعة ولا بدّ، إذ تنحو به إلى الهدفين الذين بيَّنّاهما في أوّلِ المقالة.

وأمّا الخُصوص، فهو ارتباط تدوين مصادر الأديان بلغةٍ معيَّنة؛ وفي حال القرآن الكريم، فإنَّ لغتَهُ هي آيةُ إعجازِه، فلا يمكن المحاجَّةُ عنه والباحثٌ يجهل لغته.

وأمّا في جانب النَّصرانية فلكون كتبِها تتعاقب فيها لغاتٌ عديدة: عبرانية، ويونانية، ثمَّ لاتينيَّة، ثمَّ لغاتٌ أوروبيّة. ومنتوج أهلها تنوَّع بأغلب تلك اللغات؛ ولا فهمَ سديداً إلاَّ بمعرفة الدَّلالات وتطوُّراتها التّاريخية والتَّحوُّرات الحاصلة لها من طريق التَّرجمة؛ ولنأخذ على ذلك شيئاً من المِثال فيما يتعلّق بالكتاب المقدَّس:

المثال الأوَّل:

ويتعلَّق بأسماء الأعلام؛ والأعلامُ كثيرةٌ جدًّا في الكتاب المقدَّس، وتتميَّز بصعوبة النُّطق على المبتدئ في قراءته له، كما تتميَّزُ كثيرٌ منها بمناسباتٍ في التّسمية، والتي لا يمكن الوقوف على اشتقاقاتها -وصِحّتها- إلاَّ بزادٍ لغويٍّ عامٍّ يتعلَّقُ بالدرس اللِّساني؛ وزادٍ لغويٍّ خاصٍّ، يتعلَّق بلغات الكتاب المقدّس القديمة.

ومن نماذج ذلك الآتي:

- ماورد مثلاً[1] من أسبابٍ في تسمية كلِّ واحدٍ من الأسباط، من أبناء يعقوبَ عليه السَّلام؛ ممّا يفتح لآفاق البحث أن تمتدَّ إلى التأكُّد من صحّة تلك الاشتقاقات.

---

1) انظرها جميعا في: تكوين 29: 31-35./ 30: 1-24. / وأمّا تسمية بنيامين ففي التكوين 35: 16-8.

- أن يُميِّز الباحثُ بين الأسماء مثلاً، يونانيِّها من آراميِّها؛ كأن يَعلم بأنَّ الأسماء الواردة في الكتاب المقدَّس، وأوائلها بــ "Bar" أنَّها آرامية[1]، حيث إنّ "Bar" تعني "ابن"، كــ: "بارَابَاس".

المثال الثّاني: ويتعلّق بألفاظ وبعبارات وردت في العهد الجديد بالآرامية، وحُوفظ في رواية النّاس لها على اصلها ذلك لعدم وجود[2] ألفاظ هيلّينيّة تقُوم مقامها في المعنى حقَّ القيام ؛ وفي أحايين كثيرة يتوقّف الدَّرس النَّقدي لها على معرفة أصلها، لا ترجمتها؛ وإليك نصوصاً في ذلك:

- قول المسيح عليه السّلام في إقامة ابنة "يايرس": «وأمسك[3] بيد الصَّبيَّة وقال لها: «طَليثا قومي». الذي تفسيره: يا صبيَّة لك أقول قومي».

- ما ورد عن الحقل الذي اشتراه يهوذا الإسخريوطي الخائنُ لسيِّده -في إحدى الرِّوايتين لهلاكه والتي يرويها لوقا- والذي قضى نحبه فيه: «فإنَّ هذا اقتنى[4] حقلاً من أُجرة الظُّلم؛ وإذ سقط على وجهه انشقَّ من الوسط، فانسكبت أحشاؤُه كُلُّها، وصار ذلك معلوما عند جميع سكّان أورسليم، حتَّى دُعِي ذلك الحقلُ في لغتهم: "حَقَلْ دَمَا" أي حقل دم».

وأعتقد أنَّ الباحث لو نظر فقط إلى كتابة العبارة بأصلها: «הקל דמא»[5] لعُدَّ ذلك في حدِّ ذاته بداية علميَّة ستأتي ثمراها.

---

1) F. VIGOUROUX: Le Nouveau Testament et les decouvertes archeologiques moderns; Berche et Tralin, libraries-editeurs: Paris- France, 1890, P 24.
2) Ibid ;P 31.
3) مرقس 5: 41.
4) أعمال الرسل 1: 18-19.
5) Le Nouveau Testament et les decouvertes archeologiques moderns; op.cit; p26.

2/ المكوّنات الثانويّة:

أ/ كتب العلوم الإنسانية: الفلسفة والعلوم الاجتماعية والنّفسية:

وهذه الكتب تزوّد الباحث بالمعرفة التي تمكّنه من التّعامل مع الظاهرة الدّينيّة في أبعادها الماورائية، والنّفسانيّة، والاجتماعيّة، يقول فراس السواح: «وفي[1] مجال الدّين، فإنّي أرى أنّ اختلاف وجهات النظر ناجمٌ عن عدم التّفريق – غالباً– بين ثلاثة تبدّيات ملحوظة للظاهرة الدّينية ممّا سأبسطه فيما يلي». فذكر في الصفحة الموالية الآتي: «تتبدّى[2] الظاهرة الدّينية في ثلاثة أشكالٍ يمكن وصفها، إمّا بالمراقبة المباشرة أو بالاستماع إلى شهادات الأفراد عن خبراتهم الشّخصية؛ وهذه الأشكال هي:

1/ الدّين الفردي: وسأطلق عليه اسم الخبرة الدّينية الفردية أو الحسّ الدّيني.

2/ الدّين الجمعي: وهو نتاج مرشّد للخبرات الدّينية الفردية.

3/ الدّين المؤسّساتي: وهو البنية المصطنعة التي تقوم فوق الدّين الجمعي في المجتمعات ذات التّكوين السياسي والاجتماعي المركّب».

ب/ كتب الأدب:

إنّ كتب الأدب يمكن القول بأنّها متمِّمَةٌ لكتب اللغات، وكتبِ المناهجِ والحِجاجِ، بل وقد تجد في كتب الأدب تقريراً لمعلوماتٍ تجعل كبار الباحثين ينهلون منها، كالعقد الفريد لابن عبد ربّه؛ ونهج البلاغة، المنسوب ما فيه إلى أمير المؤمنين عليٍّ بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه، أو كتاب الأغاني، ونحوها.

1) فراس السواح: دين الإنسان؛ بحث في ماهية الدّين ومنشأ الدافع الدّيني (ط4) دار علاء الدّين دمشق– سوريا 2002، ص 29.

2) المرجع نفسه، ص 30.

ثانياً: أسباب تنوّع مجالات المكتبة:

يلحظ المتتبِّع لهذه المكوِّنات أنّها تنوَّعت إلى مجالات معرفيَّة كثيرة، ويزول عجبنا من ذلك بمجرَّد أن نعرف مبرِّرات هذا التَّنويع، والتي يمكن إيجازها في الآتي:

- اتِّصال الظاهرة الدِّينية وتشابكها مع جميع الظواهر الاجتماعيّة: ممّا يُحتّم الاستعانةَ بكلِّ ما يُنتَج ممّا له علاقة بالظاهرة الدّينيّة عموماً.
- تنوُّع الشبهات النَّصرانية.
- تنوّع اختصاصات المنصِّرين.
- تنوُّع المخاطبين بالنَّشاط التَّنصيري.
- أنَّ الاستشراقَ -وهو مِدادُ التَّنصير- لا يعرف إقصاءَ أدنى ميدانٍ علميٍّ أو معرفيٍّ.

ثالثاً: مراحل الخوض في هذه المكتبة:

1/ معرفة الدِّين الإسلامي: لأنّه لا يمكن الانطلاق للباحث إلاّ من المعطيات التي نشأ عليها في دينه وبيئته وثقافته ككلّ؛ كما أنَّ المقارنة تكون بين المفاهيم الأصلية، والمفاهيم التي يتعرّف عليها من خلال دراسته للآخر.

2/ معرفة النّصرانية: وهذه المعرفة ينبغي أن تنبنيَ في المقام الأوّل على تتبّع منتوج الآخر، وبيانه لدينه وفق ما يعتقده صواباً، ومن كتبه، وبلسان قومه، ووفق ما تدين به طائفته. أمّا في النَّقد بعد ذلك فيُتوسَّع في الدرس بلا حدودٍ؛ ولكن بشرط النَّزاهة في التتبُّع، وإرادة الخير في الأهداف والغايات.

3/ معرفة مناهج المنصِّرين: حيثُ في كثيرٍ من الأحايين، نجد أنَّ أغراض المنصِّرين ووسائلهم، تُخالف ما عليه الدين المسيحي نصًّا وتطبيقاً.

4/ استيعاب النُّقود الصّادرة عن النَّصارى وغيرهم من أهل الملل والنِّحل المختلفة: حيث يجد المرء في كتب النَّصارى على اختلاف مجالاتها نقوداً ذاتيّةً للدّين، وكذلك أجوبةً عليها، وردوداً –كما لدى المسلمين– بعضها بحسب ما تقتضيه الموضوعيّةُ مقبولٌ؛ وبعضها الآخر لا يوجد حلٌّ لإشكالاته.

كما توجد نقودٌ أخرى لغير المسيحيين من ديانات مختلفة، ولعلمانيّين، ولعقلانيّين، وغيرهم تفيد الباحث في عمله؛ وإن كانت كتلةٌ منها متهافتةٌ لدى البرهان.

5/ تحديث المعلومات: وهذا التّحديث يتعلّق بالكتب والنشريات، والآراء والأقوال والمذاهب، والمناظرات والجدل، والقنوات الفضائية، ووسائل الإعلام المختلفة... إلخ. لا على سبيل الإحاطة، وإنّما على سبيل تطوير الذّات الباحثة على التكيّف مع تطورات الأوضاع، وما يتعلّق بها.

6/ تكامل المعارف على اختلاف دوائرها: بحيث إن مقارِن الأديان عموماً مشارِكٌ لأهل اختصاصات عِدّةٍ؛ ينهل من عندهم من غير أن يصير واحداً منهم، وإنّما يأخذ من عندهم ليُطوِّر علمَ مقارنة الأديان بأشياءَ يقال لها فيما بعدُ: "صُنِعَ في مخابر مقارنة الأديان".

7/ الإفادة من أعمال السَّابقين دون تقليدهم: فالمعرفة تراكميّةٌ، والنَّفس ولا بدَّ مُقتديةٌ، ولكن ولحساسية المواضيع –كما قلنا في البداية– ولمراعاة العلمية، على الباحث أن يتذكر أنّه ينشد الحقَّ، ولا يمكن الوصول إليه بسلوك طُرق التقليد الأعمى وغير الأعمى.

